المبحث الثاني

الفلسفة الكونفوشيوسية والهندوكية

في القرن الثالث عشر الميلادي كتب الرحالة البندقي ماركوبولو (Marcopolo) وصفاً للصين وإمبراطوريتها فاجأ به قراءه الأوربيين. إذ أورد فيه تعليقاً عن الحضارة والتنظيم السياسي في تلك البلاد، عكس مستوى رفيعاً ومركباً يصعب أن يقاس به أي نظير له في أوربا في القرون الوسطى. وتبقى الحقيقة التي مرّ عليها ماركوبولو والتي استمرت ثابتة، هي إنّ الصينيين كانوا يعدّون أنفسهم أكثر تطوراً وأوفر حداثة من أوربا والعالم الغربي بأسره. لقد كان عمر الامبراطورية الصينية على أيام ماركوبولو ألفاً وسبعمائة عام وظلت مستمرة في قدرتها على البقاء حتى عام 1911م. في هذه الفترة تتابع العديد من الامبراطوريات في أوربا وفي مقدمتها امبراطورية روما. كما مرّ العديد من العصور المتغيرة في أوربا نفسها دون أن ينال ذلك من الصين وامبراطوريتها ونظامها السياسي[1]. لقد طورت الصين عالماً خاصاً بها بعيداً عن تأثير الغرب وحضارته عليها. تميز هذا العالم بالتماسك الداخلي الذي أثبت فاعليته رغم ما تعرضت له الصين من غزوات ومن نزاعات داخلية خلال تاريخها الطويل.

وبصفته بلداً من بلدان الحضارة الشرقية (Oriental) شأنها شأن العراق ومصر، فقد تعرضت الصين للعديد من الغزاة ولكنّها استطاعت أن تستوعب غزواتهم وحينذاك أمكن تطويعهم واستيعابهم ضمن الدائرة الحضارية الصينية. ولكن ما هو سر هذه الاستمرارية الحضارية والقدرة على البقاء. وهنا يمكن أن نسمي أسباب ذلك بما يأتي من العوامل وهي:

أ. استمرار سلامة ومتانة البناء الاجتماعي الصيني؛

---

(1) The Nature of Non-Western World, V.M. Dean, p.92

ب. نجاح الصين في تطوير نظام سياسي استطاع أن يوفق بين المركزية ومتطلبات هيمنتها وبين اللامركزية وحرية العمل على الصُعُد الإقليمية والمحلية؛

ت. التوصل إلى بناء أخلاقي تمثل في قواعد وقيم عملت كضوابط وجهت وعصمت الحياة الاجتماعية والسياسية فيها.

هذه العوامل الاساسية الثلاث: الاجتماعي والسياسي والايديولوجي، هي التي عززت البناء القاعدي للحضارة الصينية، وكانت الدعامة لاستمرار هذه الحضارة منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى بواكير القرن العشرين. اجتماعياً، فالصين بلد زراعي. والزراعة فيها لم تكن لتقتصر على المناطق الريفية حسب، وإنّما كانت سائدة في العقلية والسلوك حتى في المناطق الحضرية وحواضر المدن. وتأسيساً على مثل هذه القاعدة في العمل فقد مارست العائلة الصينية الدور الاساس في إعطاء النظام الاجتماعي شكله وضوابطه ومؤسساته. إذ رغم الاهتمام بالروابط العشائرية فإنّ الصيني لم يكن متعصباً (Clannish) لعشيرته قدر تمسكه بعائلته.

لقد أدت العائلة الصينية العديد من الوظائف الاجتماعية، منها تعليم أفرادها وتوفير الرعاية والرفاه لهم إلى الحد الذي تحولت فيه العائلة الصينية إلى وحدة مجتمع محلي مصغر، اعتمدت على نفسها اقتصادياً. إذ قامت بتقسيم العمل بين أعضائها كما مارست أساليب فعالة في الضبط الاجتماعي، معززةً بسلطة أبوية فاعلة. ونظراً لقوة العائلة الصينية واتساع الرقعة الجغرافية للصين وامتداد تاريخها فقد تقدمت العائلة على الطبقة، إذ رغم تراكم الثروة بأيدي فئة جمعت إلى جانب الثروة السلطة كذلك، الا إنّ البناء العائلي القوي تقليدياً استطاع أن يكون البديل الافضل للتحلل الطبقي، بفعل التآكل الذي عانى منه الحجم العددي الذي أخذ يميل إلى تركيز الثروة بأيدي أقلية متفائلة. لذا فقد كان الحراك الاجتماعي يعتمد على إحلال العائلة محل الفئة أو الطبقة التي ضعفت بفعل ما أصابها من تآكل، رغم إنّ هذا كان يجري من دون صراع وفي ضمن الحدود المسموح بها اجتماعياً وسياسياً في الصين.

ولم تقف العائلة الصينية لتجديد فاعلية المجتمع الصيني عن طريق الحلول محل الطبقة المتآكلة فقط استطاعت وبفعل قوتها أن استيعاب العديد من المشكلات

والصعوبات والتعقيدات الاجتماعية، مما حرر الحاكم الصيني من العديد من القيود التي قد تستنزف جهده. وبذلك استطاع (الحاكم) أن يتفرغ إلى شؤون حكمه وهموم نظامه السياسي ومن أجل جمع الضرائب والسيطرة على الفيضانات المدمرة التي كانت وما زالت إحدى أخطر مشكلات الصين، فضلاًعن قيامه بواجب الدفاع عن البلاد. أما عامل الاستقرار الثاني في الصين القديمة والذي عزز هو الاخر دور العائلة فقد تمثل في (البيروقراطية الصينية). إذ رغم المتغيرات التي تحدث في حلقات الحكم العالية (الدائرة الامبراطورية) فإنّ الجهاز الإداري الصيني ظلّ محافظاً على مكانته الوظيفية وأهميته السياسية وثقله الاجتماعي. ويعود سبب ذلك إلى إنّ حركة العائلة في المجتمع الصيني حالت دون حدوث تفاوت طبقي حاد. لذا فإنّ الإداريين في الصين ظلوا يتقاربون في إعدادهم وفي تفكيرهم، وكانوا غير بعيدين في سلوكهم السياسي والإداري عن الامبراطور أو المجتمع. إضافةً إلى ذلك فأن هذا الحجم الإداري الضخم كان جزءاً من فئة مثقفة (Elite) يمكن أن يطلق عليها اسم الطبقة المثقفة العريقة الاصل (Scholar-Gentry Elite). رغم إنّ الجهاز الإداري كان مفتوحاً لأفراد العامة من الناس، الا إنّ ثبات القوالب الثقافية والبيروقراطية كرس النمطية في الفكر والإدارة. لذا فإنّ إعداد الكوادر الإدارية الصينية لم يهتم بالجوانب الإدارية والسياسية، بل ركز على الجوانب الإنسانية (Humanistic) (التي لعبت فيها العائلة دوراً متميزاً)، والادبية (Literary) والفنية(Artistic) دون الاهتمام بالصيغ الإدارية العملية[1].

الكونفوشيوسية والفكر الصيني

مثلت الكونفوشيوسية في الصين القديمة الايديولوجية التي نظمت الحكم والحياة. وكانت ذات صلة قوية بتلك الطبقة المثقفة العريقة الاصل. لقد مثل كونفوشيوس (551-449ق.م) أحد قمم الفكر العالمي والصيني على حد السواء. فقد سبقه العديد من المفكرين، منهم أستاذه لاو-تسي الذي ولد حوالي 660ق.م، وعاش حتى سن السابعة والثمانين من عمره. لقد سأله كونفوشيوس في أخريات

---

[1] كريل، هـ. جـ . ت، عبد الحميد مسلم، علي أدهم، الفكر الصيني، ص 1- 22

أيامه النصح فكانت إجابته:«ما إن تدق ساعة الرجل العظيم حتى يرقى إلى قمة الريادة. ولكنني سمعت إنّ التاجر الناجح يخفي ثروته بحذر. وإنّ الرجل العظيم بالرغم من وفرة أعماله العظيمة بسيط في سلوكه ومظهره. ألق عنك كبرياءك وطموحك، فلن تربح شيئاً من هذه كلها. وهذه هي النصيحة التي أستطيع أن أقدمها اليك. كيف تظل رجلاً صالحاً، لا كيف تصبح رائداً عظيما»[1].

الا إنّ الفلسفة اللاوية (فلسفة لاو- تسي) كانت انعكاساً لتفكير متأثر بعمر متقدم. أي إنّها تخاطب الماضي ممثلاً بالشيوخ. فيها قسط كبير من القناعة والرضا. فقد إختط كونفوشيوس له طريقاً يختلف عن أستاذه. إذ ترسم له قاعدة تجمع بين (التعقل والاعتدال) لكي يكون أقرب إلى عصره ويستطيع أن يكون فعالا في المجال السياسي (الحكم) الذي يؤكد على المنافسة. لذا فقد كانت دورة حياته من الفلسفة إلى السياسة ومنها إلى الزهد. واسمه في الصينية كونجفو - تسي، أي كونفوشيوس والتي تعني السيد العليم كونج.

لقد تعلم كونفوشيوس واختلط وساح ودرس موضوعات التاريخ والشعر وآداب اللياقة. ومثل بوذا حاول أن يتجنب الجدال مع المدرسين الاخرين «فلنبّرز اتفاق وجهات نظرنا بدلاً من مناقشة أوجه الخلاف بيننا. وكل ما يراه الجميع متشابهاً هو الصواب على الارجح». وبرغم كل هذا فلم يصل تسامحه إلى حد يجعله يغطي على حماقة بعض تلاميذه أو تمردهم. وكان يؤمن بإستخدام العصا لحث الطفل على العمل. فضلاً عن ذلك كان من رأيه معاقبة آباء الاطفال المنحرفين، كما يعاقب الاطفال أنفسهم سواءاً بسواء. وفي إحدى المناسبات قبض على مراهق بتهمة السرقة، فما كان من كونفوشيوس الا أن قدم نصيحة إلى القاضي بأن يرسل الاب والابن معاً إلى السجن، «فلو إنّ الاب قد ربى ابنه جيداً، لكان سلوك الابن جيداً أيضاً. وكان كونفوشيوس يؤمن بتكامل الاسرة ووحدتها كقاعدة لدولة عادلة قوية. فالامانة، مثلها مثل البر والإحسان، يجب أن تبدأ من البيت» [2].

---

[1] هنري توماس، ت. قدري أمين، م. زكي نجيب محمود، أعلام الناس وكيف نفهمها، ص 49

[2] المصدر نفسه، ص 54

الا إنّ نقطة التحول في حياة كونفوشيوس وفي مسيرته الفكرية التي انتقل بالفعل بعدها من التدريس والتأمل إلى المجابهة والتعامل مع الاحداث الحياتية هي التي أشرت بالفعل انتقاله من الفلسفة إلى السياسة وحدثت كرد فعل لمعاناة مر بها «... وحدث مرة بينما كان يعبر رابية جبلية أن رأى امرأة تبكي وهي راكعة إلى جانب قبر جديد فسألها قائلاً: فيم حزنك وبكاؤك أيتها المرأة؟ فقالت: إنّني أبكي ولدي الذي افترسه نمر في هذه البقعة، وسبقه زوجي إلى نفس المصير ومن قبل زوجي لقي أبوه حتفه بالطريقة عينها. فسألها المعلم: ولم إذن لم تنتقلوا حتى الان إلى مجتمع متمدين؟ فما كان من المرأة التي عضّها الدهر بنابه الا أن تسأله بدورها: وأين ياسيدي يمكن أن تجد مثل ذلك المجتمع؟ وهنا ألجم السؤال لسان كونفوشيوس بما فيه من تحدٍّ. فقرّ قراره عندئذٍ على أن يجد في البحث عن مجتمع متمدين – أو على الاقل أن يعثر على حاكم تتوافر عنده الرغبة في توجيه شعبه نحو حياة أرقى وأكثر تحضراً» [1]. وبذلك تحول كونفوشيوس لإصلاح المجتمع عن طريق إصلاح النظام السياسي، وبالذات إصلاح الحاكم. لذا فقد وجد في البحث عن أمر يعيد بناء شخصيته وفق المواصفات الفكرية التي يعدّها كونفوشيوس لازمة لمثالية الحاكم. وهي محاولة كررها العديد من رجال الفكر كما تكررت في العديد من حضارات العالم في الشرق والغرب وفي القديم والحديث، منهم أفلاطون وأمير سيراكيوز وأرسطو والاسكندر وميكافيللي والامير لورنزودي مدتيشي.

ولم يكن حظ كونفوشيوس مع أميره بأفضل من أقرانه الفلاسفة والمفكرين مع أمرائهم. إذ كان أمير كونفوشيوس (تشي) عندما سأله عن أفضل أساليب الحكم أجاب: « بإعطاء الفرصة للجميع، من الامير إلى المتسول لكي يعيشوا في تآلف ثم على وجه التخصيص إزالة الاسباب التي تخلق المتسولين في المجتمع. الا إنّ بطانة الامير الصيني وبالذات كبير وزرائه حال دون احتفاظ الامير بكونفوشيوس ناصحاً ومستشاراً خاصاً له، حيث اعترض قائلاً: هؤلاء العلماء إن هم الا حالمون غير عمليين. فرؤوسهم مرفوعة في أعالي السحاب لدرجة إنّ أقدامهم لم تعد تلمس الارض. ولما لم يفلح كونفوشيوس كمستشار للحاكم فقد عزم على أن يخوض غمار

[1] المصدر نفسه، ص 55- 56

الإصلاح الاجتماعي كلازمة للإصلاح السياسي. لذا فقد أصبح كبير القضاة في عاصمة أحد أقاليم الصين. ومن خلال منصبه هذا عمل على بناء شريعة تقوم على المروءة المتبادلة. فقبل أن يصل إلى تشونج – تو حاضرة الإقليم كانت المدينة مسرحاً ومباءة لأحط اللصوص والنهابين. وما أن تولى سلطته حتى بادره قادة المدينة بالاستفسار عما يمكن أن يعمله لإنقاذ الموقف. فكان أن أجابهم قائلاً: لا سبيل إلى وضع حد للسرقة والنهب الا إذا وضعتم أنتم حداً لجشعكم. وإذا أقلعتم عن الجشع وحب الكثرة الوافرة فلن يقاسي الاخرون من الحرمان. ولن يكون هناك ما يغريهم أو يدفعهم إلى السرقة».[1].

وبفعل هذه المواجهة التي لم تكن مألوفة في الصين القديمة على مستوى السياسة والقضاء فقد أبعد كونفوشيوس عن القضاء. وبذلك تحول إلى التدريس ثانيةً وكرس حياته وما تبقى منها للزهد والتأمل جاعلاً نفسه (ناقل الافكار وليس صانعها). لذا فقد رأى أن يتوجه بالحكمة إلى عقول الناشئة مؤكداً إنّ إيصالها إلى ضمائر هؤلاء الناشئة كفيل بتأشير مستقبل تتحول فيه مثل هذه الافكار إلى قيم وضوابط يترتب عليها سياقات عمل جديدة تقود نحو الافضل من المجتمعات. ولما كان كونفوشيوس عميقاً في تناوله لمشكلات مجتمعه وعصره متوجهاً إلى الإصلاح والتغيير وإنطلاقاً من نقله للأفكار، وليس صنعها، وتأكيداً منه أهمية التراث والتواصل في بناء الشخصية القومية فقد ألف كونفوشيوس خمسة كلاسيكات (Five Classics) لكي يربط بين حضارة الصين القديمة وبين حضارة عصره الذي عاش فيه. وقد احتوت هذه الدراسة على تقصي التقاليد والعادات الدينية في ولايات الصين المختلفة مع ربطها بجذورها الممتدة عبر التاريخ السابق للميلاد، وكذلك أصول ديانات الاسر الصينية القديمة وعشائرها وأصول الحكم السياسي فيها والمبادئ التي كان يقوم عليها النظام السياسي. وعرض أيضاً في مؤلفاته لفروع المعرفة الستة التي كانت سائدة في عصره وهي: الطقوس والموسيقى، الرماية وقيادة العربات وركوب الخيل، القراءة، الرياضة والحساب. وأنشأ تلاميذه مدرسة لدراسة فلسفته ومؤلفاته استمرت أكثر من ألفي عام. ومؤلفاته هي:

---

(1) ال... 57

1. كتاب الاغاني والشعر؛
2. كتاب التاريخ؛
3. كتاب التغيرات؛
4. كتاب الربيع والخريف؛
و5. كتاب الطقوس والتقاليد. وفي كتابه الثالث الذي خصصه لدراسة فلسفة تطور الحوادث للإفادة منه في التنبؤ ومعرفة الحوادث المستقبلية، استطاع كونفوشيوس تحويل "علم التنبؤ" إلى دراسة علمية للسلوك الإنساني وكيف يتأثر بالظروف الطبيعية والاجتماعية التي تكتنفه. وبذلك يمكن، بإستخدام هذه الدراسة، التنبؤ علمياً بسلوك الفرد في المستقبل[1].

المعطيات الاساسية في الفلسفة الكونفوشيوسية

لم يكن كونفوشيوس في الاساس مهتماً بالمشكلات الفلسفية الخاصة بما وراء الطبيعة (ميتافيزيقيا) والمعضلات الدينية. لذا فقد كرس جلّ وقته للتوصل إلى حلول للصعوبات الاخلاقية (Ethical) والإنسانية (Human) والاجتماعية (Social) التي يشكو منها عالمنا الارضي. وبدءاً فإنّ المعيار الذي يمكن أن تتسق وفقه العلاقات الإنسانية هو التناغم والانسجام (Harmony) الذي يمكن اعتباره المفتاح الاخلاقي الاساس للفلسفة الكونفوشيوسة. ولا يمكن لهذا المبدأ الاخلاقي من أن يصبح واقعاً الا إذا اعترف بمبدأ آخر هو النظام (Order) في مجال السلطة (Authority) والعائلة (Family) والمجتمع (Society) والدولة (State). لذا فقد سمّى كونفوشيوس العلاقات الترابطية الخمسة الآتية قواعدً خالدة في بناء المجتمع الفاضل وهي:

1. على الرعية طاعة حاكمها؛
2. على الابناء طاعة آبائهم؛
3. على الزوجات طاعة أزواجهن؛
4. على الاخوان الاصغر طاعة الاكبر من اخوانهم؛

---

[1] عبد الباقي، زيدان، التفكير الاجتماعي، ص 38- 39

5. التركيز على الصداقة وسيلةً في الانسجام الاجتماعي.

وبملاحظة هذه المبادئ الخمسة فإنّ الاول منها يهتم بالعلاقة بين الحاكمين والمحكومين، في الوقت الذي خصصت فيه الثلاثة الاخرى لتلك العلاقات التي تشد من الاواصر العائلية مما يؤكد اهتمام الفلسفة الكونفوشيوسية بالعائلة ودورها في المجتمع الصيني لإنّ العائلة مثلت حجر الزاوية في الامبراطورية الصينية اجتماعياً وسياسياً. لذا فقد التزمت الفلسفة الكونفوشيوسية بهذا الدور للعائلة لكي تكرس التوافق والانسجام بين العائلة والدولة، أي بين النظامين الاجتماعي والسياسي، وهو تكريس في ذات الوقت لأعلى وأوسع وأخطر حلقة من حلقات الانسجام والتناغم في الفلسفة الكونفوشيوسية حيث يبلغ المبدأ الكونفوشيوسي (التناغم) أعلى مستوياته موظفاً لبناء دولة مستقرة. الا إنّ ما يؤخذ على كونفوشيوس هو بناؤه النظام السياسي على أساس السلطة وليس الحرية الفردية. كما إنّ كونفوشيوس، وبحكم تقييمه العالي للفكر والمفكرين، رفع من مكانة الطبقة المثقفة في المجتمع واضعاً إياها في أرفع درجات السلم الاجتماعي مما ترتب عليه الحط من العمل اليدوي (Manual Labor) والعمل النقدي والمصرفي باعتبار إنّ مثل هذه الممارسات لا تليق بالرجال المتمدنين فعلاً[1].

ولم يقتصر كونفوشيوس في إصلاحه لمجتمعه كما لم يقتنع بأن تكون آراؤه محدودة بإدراك عصره. لذا فقد فكر بإصلاح الإنسانية والبحث عن الإنسان الاسمى من خلال مشاركته لغيره من البشر، الاقل منه توفيقاً، في أحمالهم الثقيلة. وحدث مرة أن عنّفه أحد تلاميذه بسبب هذه العادة المتطرفة في الديموقراطية، فما كان من كونفوشيوس الا أن أجاب تلميذه قائلاً: من إذن ينبغي عليّ معاشرتهم، إن لم يكن هؤلاء المعذبون!.

ولم يكن شعور الاخوة نحو الاخرين عند كونفوشيوس الا طابع الإنسان الاسمى. وقد تحدث كونفوشيوس عن الإنسان الاعظم قبل أن يجيء نيتشة بنظرية الإنسان الاعلى بما يقرب من 25 قرناً. ولكن هناك اختلاف بين الاثنين فأنسان كونفوشيوس المثالي كان يرى إنّ باستطاعة الاخرين كافة أن يصبحوا نظراءه. أما

---

[1] Dean, V. M., pp. 96-98